مفهوم الحي على محك الهويات المجالية: نموذج "حي الصباح" بمدينة وهران.

The concept of quarter on the test of the spatial identities : « Essabah » quarter in Oran city as model.

أ. فريد مرحوم، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان- الجزائر.

ملخص: في حالات إعادة الإسكان في أحياء السكن الجماعي الجديدة، يكمن الإشكال في تشكل علاقات الجوار والاجتماع البشري والرباط الاجتماعي، أو بتعبير أدق "إعادة" تشكلها جراء "القطيعة" الناتجة عن مغادرة مجال مسكون سابق؛ حيث أن الأمر لا يتعلق فقط بـــالانتقال من مجال سكني إلى آخر، بل أكثر من ذلك بـــ "هجرة" من مجتمع أصلي نحو مجتمع استقبال (جديد)، مع كل ما يستتبع ذلك من تغيرات في نمط العيش، وفي تجنيد الهوية بأبعادها المختلفة في إثبات الذات والتعايش مع "الآخرين". إعادة التشكل هذه، هي جوهر إشكاليتنا البحثية من حيث أنها تثير مسألة ميلاد أحياء السكن الجماعي الجديدة في تصورات سكانها كهوية مجالية جديدة، أمام هيمنة الهويات المجالية المرتبطة بأحياء السكن السابقة. بينت لنا دراستنا أن مفهوم الجوار يتغير ويختلف على حسب عدة مؤشرات منها : الهوية المجالية السابقة، شكل الاجتماع البشري، الانتماء الثقافي والجغرافي، الاشتراك في التاريخ الاجتماعي السكني.

الكلمات المفتاحية: الحي، الهوية المجالية، الجار المقدس، الجار الحنيني، الجار الشائع، الجار المواطن.

Abstract: In cases of re-housing in the new collective housing, the problem lies in the formation of relations of neighborliness, human union and social cohesion, or more precisely the "re-formation" of the "estrangement" resulting from leaving a former inhabited area; But rather a "migration" from an indigenous society towards a new (receptionist) community, with all the consequent changes in the way of life, and in the recruitment of identity in its different dimensions in self-affirmation and coexistence with "others." This reshaping is the essence of our research problem in that it raises the question of the birth of new collective housing in the perception of its inhabitants as a new geographical identity, in the face of the predominance of the surrounding identities associated with the former residential neighborhoods. Our study showed that the concept of neighborhood changes and varies according to a number of indicators, including: previous spatial identity, human form, cultural and geographic affiliation, participation in social and residential history.

Keywords: neighborhood, spatial identity, holy neighbor, nostalgic neighbor, common neighbor, citizen neighbor.

مقدمة:

قد تبدو مسألة الاختلاط الاجتماعي والتعايش في ظل الاختلاف بين الثقافات، من أول وهلة، أنها ظواهر طبيعية في كل المجتمعات، ولكن دراسة هذه الظواهر في علم الاجتماع –الحضري بالخصوص- تجعل منها موضوعا يخضع للتفكير العلمي والموضوعي الذي يكشف عن مدى تمشكلها وصعوبة فهمها، إذ يتطلب الأمر منهجية متينة وتحقيقا ميدانيا يستجلي المعاني من خلال تحليل الخطاب وملاحظة الممارسات وتفكيك بنية التصورات الاجتماعية. فنمط السكن الجماعي يجمع في فضاء الحي السكني بين أسر وجماعات ذات ثقافات سكن، وأنماط عيش مختلفة، وهويات مجالية –متصارعة أحيانا- منها ما يرتبط بـ"الحوش" والحي الشعبي، ومنها ما يرتبط بثقافة الطبقة، ومنها ما يتعلق بثقافة العمل.

في حالات إعادة الإسكان في أحياء السكن الجماعي الجديدة، يكمن الإشكال في تشكل علاقات الجوار والاجتماع البشري والرباط الاجتماعي، أو بتعبير أدق "إعادة" تشكلها جراء "القطيعة" الناتجة عن مغادرة مجال مسكون –سابق- بكل خصائصه ومعالمه المادية والاجتماعية والثقافية؛ حيث أن الأمر لا يتعلق فقط بالانتقال من مجال سكني إلى آخر (تغيير مكان الإقامة)[1]، بل أكثر من ذلك بـــ "هجرة" من مجتمع أصلي نحو مجتمع استقبال (جديد)، مع كل ما يستبع ذلك من تغيرات في نمط العيش، وفي تجنيد الهوية بأبعادها المختلفة في إثبات الذات والتعايش مع "الآخرين". إعادة التشكل هذه، هي جوهر إشكاليتنا البحثية من حيث أنها تثير مسألة ميلاد أحياء السكن الجماعي الجديدة في تصورات سكانها كهوية مجالية جديدة، أمام هيمنة الهويات المجالية المرتبطة بأحياء السكن السابقة.تتولد هوية الانتماء إلى الحي الجديد من "التقاطعات" بين هويات مجالية وثقافات سكن وأنماط معيشة مختلفة؛ حيث تتصارع هذه الهويات المجالية في البداية، إلى أن يتم الاتفاق –ضمنيا- على أشكال اجتماع بشري تنبئ عن الرغبة في "التجذر" في الفضاء السكني الجديد، كمرحلة ثانية تلي مرحلة "الاجتثاث" التي عرفها السكان عندما غادروا أحياءهم السابقة. الإشكال المراد معالجته في هذه الورقة يتعلق بمرحلة الصراع هذه التي قد يطول أمدها عندما لا يحصل الإجماع على ممارسات جديدة، بسبب هيمنة الهويات المجالية السابقة على التصورات والممارسات لدى السكان، مما ينعكس بأشكال ودرجات مختلفة على تشكل هوية الانتماء إلى مجال الحي السكني الجديد.

من أجل فحص هذه الإشكالية، نستند إلى نتائج البحث الميداني الذي قمنا به في الفترة ما بين 2010 و2013، في حي الصباح، بمدينة وهران في إطار انجاز أطروحة الدكتوراه (فريد مرحوم، 2015)، والتي كان عنوانها: "السكن الجماعي في الجزائر؛ سكان حي الصباح (وهران) بين الصراع والاجتماع"، نوقشت بنجاح في أبريل 2015.

[1] يقول علي الكنز في هذا السياق: "إن اكتشاف التجربة الاجتماعية هو وليد نشاط نظري وحركية اجتماعية انتهت إلى فرض المجتمع لنفسه كموضوع مركزي يستدعي الدراسة، فكل شيء تغير، أنماط المعيشة كما التصورات، وتوسع الفضاء الحضري على حساب العالم الريفي الذي لم يستطع الحفاظ سوى على ثلث السكان الإجمالي، إن إعادة التشكيل هذه تجعل الحركية التاريخية تنتقل من الريف نحو المدينة، وفي المدينة - حتى وإن كانت غير منظمة وكان السكن في الأحياء القصديرية الضعيفة التجهيز- يتم اكتشاف حاجات جديدة: كالعمل المأجور والصحة والمدرسة ووسائل الإعلام العصرية، إن الذي حصل لم يكن تغييرا لنمط الإقامة فقط، إنه تغيير لنمط الحياة."، أنظر: علي الكنز، 2001، ص211.

اعتمدنا في البحث الميداني على مقاربة كيفية ارتكزت في جمع المعطيات على الملاحظة المباشرة والمقابلات نصف الموجهة، كما أننا أقمنا في نفس الحي في الفترة ما بين 2010 و2012، ما سهل علينا عملية التواصل مع السكان.

ما سوف يرد في الورقة هو إعادة قراءة لنتائج البحث من خلال تحليل خطاب المبحوثين حول معاني كونهم من سكان حي الصباح، من جهة، في علاقته مع كونهم كانوا يتعرفون مجاليا بأحيائهم السكنية السابقة (الأحياء القديمة لوسط مدينة وهران)، أي أننا أردنا أن نعرف ما إذا السكان يعرفون أنفسهم كسكان حي الصباح، أم أنهم لا زالوا يعتبرون أنفسهم من سكان تلك الأحياء القديمة التي غادروها –مكرهين في بعض الحالات- منذ أكثر من عشرة أو خمسة عشر سنة. ونشير هنا إلى أن ما أثار تساؤلنا حول هذا الموضوع هو تلك التقسيمات التي استعملها المبحوثون في خطابهم حول السكان في حي الصباح، حيث لاحظنا أن المبحوثين يعرفون غيرهم وحتى أنفسهم بـ "أصحاب سيدي الهواري"، "أصحاب سان بيير" "أصحاب عين البيضاء"، "ولاد الدرب"، "اللي جابوهم من راس العين"، "حنا ولاد سيدي الهواري"، نسبة إلى أحياء سكنهم السابقة.

حيث علمنا من خلال التحقيق الميداني أن حي الصباح هذا قد تشكل من عمليات متتالية لإعادة الإسكان (منذ 1997)، حيث تم ترحيل أسر كبيرة من الأحياء العتيقة في وسط مدينة وهران، ومن بعض الأحياء القصديرية كحي عين البيضاء إلى حي الصباح، في إطار محاربة السكن الهش بوسط المدينة والقضاء على أحياء الصفيح المنتشرة على ضواحيها، من أجل معالجة –أو ربما مرافقة- أزمة السكن؛ حتى أن أحد السكان صرح لنا بالقول أن: "بلدية بئر الجير أصبحت مفرغة عمومية (décharge) لمشاكل بلدية وهران"، وبإضافة عمليات الإسكان في مشاريع السكن التساهمي، والسكن الوظيفي لأساتذة وعمال الجامعة، وسكنات البيع بالإيجار "عدل" مشروع 2001، والسكن الترقوي المدعم (مؤخرا)، فإن الجهة الشرقية لمدينة وهران أصبحت تمثل مثالا حيا عن "الاختلاط الاجتماعي" لتساكن وتعايش مختلف شرائح المجتمع الجزائري في السكن الجماعي. شرائح أو جماعات ذات هويات ثقافية (ومجالية) ومستويات سوسيو-اقتصادية متباينة، يجمع بينها فضاء الحي السكني، ولكنها متباعدة اجتماعيا تملك كل منها أدوات ووسائل التعبير عن الاختلاف المحفزة للصراع والمواجهة والرفض والعنف.

1.في هوية المجال وهوية الساكن:

في سياق التغير الاجتماعي، فإن ما حدث في حي الصباح، بإنزال عائلات وأسر وجماعات تشكلت في أحياء سكنية أخرى، على هذا المجال السكني الجديد، تطلب من هؤلاء التكيف مع الفضاء المبني بشكله وهندسته وتنظيمه[2]، بالتخلي عن العلاقات وشبكاتها السابقة (الجيرة القديمة)

[2] نحن نأخذ الوضعية السكنية الجديدة بالنسبة إلى وضعية قديمة أو سابقة على شاكلة: *الفضاء الأصلي وفضاء الاستقبال*. في الواقع إن مسألة إعادة الإسكان، مثلها في ذلك مثل الهجرة لا يمكن معالجتها وفهمها إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار المجتمع الأصلي أو الثقافة الأصلية، والهوية المبنية على أساس "المجال المسكون" أو مقر السكن السابق بمعالمه المادية وأشكال الاجتماع البشري السائدة فيه. يوضح عبد المالك صياد بعناية، أن العلاقة القائمة بين المسكن الحديث والساكن الجديد ليست أداتية (relation instrumentale) محضة، بل تقوم على "الحوار" المتواصل بين الساكن والمسكن، والذي يفترض وجود لغة تواصل، وهي في الجوهر لغة ثقافية. بالنسبة للساكن يتم تضمينها في شكل أنماط سلوك ملموسة واستعدادات تتجسد في شكل مواقف وتصرفات؛ أما بالنسبة للشقة فهي مسجلة وفقا لمتطلبات وإمكانيات يمليها شكلها. أنظر: Abdelmalek Sayad, 1980, pp 11-27.

من أجل ابتكار علاقات جوار واجتماع جديدة (Alian coulon, 1997, p 33) ، ولكنهم عملوا في حالات استحالة ذلك أو صعوبته، على تكييفه وتغييره أو تملكه واستعماله بطرق مختلفة مغايرة، بإعادة إنتاج الأحياء السابقة (الهويات والعلاقات الاجتماعية) في الحي الجديد. فالمسكن إذن ليس سوى بلورة لمجموعة من العلاقات الاجتماعية والنماذج الثقافية، وفعل الساكن ليس هدما أو مقاومة للهندسة المعمارية، وإنما هو إثراء لها لجعلها أكثر تفتحا (El Djounid Hadjidj, 2011a, p407).

يتولد لدى السكان، من خلال التصور والخطاب حول الحي وحول السكان وحول العيش فيه، الإحساس بالاختلاف عن "الآخرين"[3] من خلال معاينة الهوية المرتبطة بالمجال المسكون، على شكل "بطاقات تعريف" للسكان حسب الانتماء إلى مجال سكني سابق، ولكن إذا "كانت الهوية تحتاج إلى تحديد مجال جغرافي من أجل أن يتعرف بها الأفراد"، فإن عدم وضوح حدود المجال الجديد بالنسبة إلى المجالات الأخرى، يؤدي بالسكان إلى تفضيل التعامل والاجتماع (sociabilité) مع جماعات هي الأقرب إلى هويتهم المجالية، ونعت الآخرين بـــ "البرَّانيين" أو" البْرَاوية"، أو بابتكار تسمية مغايرة للتسمية الرسمية للحي الصغير (la cité) تثبيتا للذات تجاه الهويات الأخرى و تمسكا بالهوية المجالية السابقة من خلال الذاكرة والمخيال.

يتمظهر الرباط الاجتماعي في التبادلات الناجمة عن التساكن بين جماعات ذات أشكال ومرجعيات متعددة (القبيلة، الأسرة الممتدة، ثقافة مهنية، شريحة اجتماعية...)، ليلعب دورا هاما في تحقيق الانسجام الاجتماعي حين يتكثف التبادل والتكامل بين الأفراد (El Djounid Hadjidj, 2011b, p 7). فقد يكون المعيار في اختيار دوائر الاجتماع البشري، هوية مهنية أو هوية شريحة عمرية تتعلق بالسن أو بالجيل، أو الوضعية في دورة الحياة، أو هوية مجالية أو هوية ترتبط بالوضعية الاجتماعية التي تتحدد من خلال مؤشرات اقتصادية تمكننا من الحديث عن التراتب الاجتماعي أو الشرائح الاجتماعية أو المجتمع ذي الدرجات. ولأن السكان يتعاملون مع "الآخر" من خلال الإحساس اتجاهه، فإن علاقات الجيرة أو الجوار و"المؤالفة" والاجتماع قد تقوم على أساس التقارب في التراتب الاجتماعي، وبهذا يمكن للانسجام الاجتماعي في حالات التشظي والتباين السوسيو-مجالي أن يسهم في تفكك الرباط الاجتماعي، في حالات يمكن نعتها بالأنوميا (des situation d'anomie)، حيث تعجز القواعد الاجتماعية عن تعديل الرغبات الفردية والجماعية، ليندفع كل واحد إلى عدم الاهتمام بالشؤون العامة، منطويا وحريصا على مصالحه الفردية، مسهمين في تفاقم أزمة الرباط الاجتماعي (El Djounid Hadjidj, 2011b, p7) على تعبير حجيج الجنيد.

2.بناء مفهوم الجوار في حي الصباح:

سوف نحاول في هذا العنصر، أن نستقصي كيفية تأثير الهويات المجالية السابقة على بناء التصورات والمفاهيم لدى السكان عن الحي الجديد (حي الصباح) من خلال التطرق إلى كيفية

[3] في الحقيقة تبقى بعض المواقف غامضة وعسيرة الفهم، حتى لدى المبحوثين أنفسهم. الكل يتكلم عن الآخر أو الآخرين، وعن "البرَّاني"، لكن دون أن يعطوا تعريفا مقنعا (موضوعيا) لهذا الآخر، وحتى عندما يعرفونه بـــ "الوافد على وهران من جهة أخرى" أو" الوافد على الحي"، فإن السؤال يبقى مطروحا حول معايير هذا التصنيف. ففي النهاية، سوف نجد أن الجميع برَّاني في حي الصباح!

بناء السكان لتصور الجار انطلاقا من مستويات مختلفة (ديني، مخيالي، من المعاش اليومي، والمستقبل المأمول)[4]، ولكنها تتعلق أساسا في معظمها بالهوية المجالية للأحياء السكنية السابقة، التي ولدوا فيها وعاشوا فيها فترة من الزمن قبل أن يُرحَّلوا إلى حي الصباح. وإن صح القول فإن تلك المجالات السكنية هيكلت حياتهم وتصوراتهم بشكل قوي، جعل منها تتمظهر كهوية متحركة (une identité active) تقاوم من أجل البقاء والهيمنة بعدما تمت خلخلتها جراء "حدث" الانتقال إلى مجال سكني جديد (حي الصباح). فالاضطراب الذي يحدثه تغيير مقر الإقامة من حي إلى حي سكني آخر، أومن الحوش إلى الشقة "الحديثة"، ينجر عنه تغيرات على مستوى نمط الحياة والأدوار الاجتماعية داخل الأسرة، كما ينجم عنه محاولات تكييف الفضاء المسكون مع ثقافة السكن. التكيف ليس آليا وليس سهلا، والمقاومات التي يبديها سكان أحياء السكن الجماعي فرديا وجماعيا، إنما تنبئ عن "ضنك العيش الحضري" الذي يدل على أزمة تملك المجال المسكون، التي تشير إلى عدم توافق المجال المبني مع المجال المعاش(Cf. Abdelamalek Sayad, 1980).

بمفهومه التقليدي فإن الجوار يحيل إلى "إحساس جماعي"، ينتج عن العلاقات الشخصية التي تجمع أعضاء جماعة –منعزلة في البداية- والتي كونت مع جماعات أخرى المجتمع الحالي. لكن دراستنا بينت لنا أن مفهوم الجوار يتغير ويختلف على حسب عدة مؤشرات منها : الهوية المجالية السابقة، شكل الاجتماع البشري، الانتماء الثقافي والجغرافي، الاشتراك في التاريخ الاجتماعي السكني. ويمثل المسكن (الشقة) المعلم المركزي الذي ينطلق منه الساكن في وضع حدود جواره والذي يأخذ شكل الدائرة أو المستطيل أو المثلث أو أي شكل آخر. المهم هو أنه يشير إلى مجموعة من الأفراد يسكنون مجالا مشتركا وتربط بينهم علاقات اجتماعية مباشرة (Roderick McKenzie, 2009, p240-242)، لكن وجب أن نشير إلى أن العيش المشترك لا يشترط وجود اتفاق شامل أو إجماع كامل بين الجميع، فلكل ساكن مساراته ومعالمه الخاصة. أضف إلى ذلك، أن المجال المشترك لا يحقق فقط أدوارا وظيفية كمكان للتعايش السلمي، بل يسمح كذلك للساكنين على اختلافهم بالتوجه نحو نفس الآفاق بمقاربات مختلفة، مع الاحتفاظ باختلافاتهم وصور واجهاتهم والمسافات الفاصلة بينهم من خلال ما يسميه لويس ديمون (Louis Dumont) "الهرمية المفتوحة"[5].

---

[4] وردت هذه المستويات الأربع في خضم المقابلات مع المبحوثين دون الترتيب الذي نورده بها نحن، ولكننا اخترنا هذا الترتيب لأنه في الواقع يعبر عن صيرورة تاريخية معينة للمفهوم ترتبط بالزمان والمكان، وتخرج عن النماذج النظرية المقدمة من طرف الباحثين في المجتمعات الغربية.

[5] يرى Louis Dumont أن "الهرمية المفتوحة هي توفيقة بين آفاقٍ مختلِفةِ المستويات، حيث الوحدة في المستوى الأعلى مرتبطة بتمايزات في المستويات الأدنى فيما يخص التكامل والتضاد [...] تبعا لهذا المفهوم، يمكن أن نفهم الفضاءات المشتركة (الوسيطة) كتراتب هرمي للنتاجات الاجتماعية التي تنتظم في شكل خلاق من خلال لعبة التفاعل بين مختلف المستويات. الهرمية تفتح إمكانية لقلب الصورة، حيث في عتبة معينة، ينقلب الفضاء إلى شيء آخر مع البقاء هو نفسه". استعان Louis Dumond لتجسيد تغير الأفق المرتبط بالانتقال من مستوى إلى آخر بالإشارة إلى مثال عتبة المنزل القبائلي الذي قدمه P. Bourdieu: "... بتخطي العتبة، ينقلب الفضاء، وتتبادل الجهات. وكأن العتبة هي مركز سيمتري بين الفضاء الخارجي والفضاء الداخلي للمنزل المقلوب بالنسبة للأول".أنظر: Ahmed Boubeker, 2005, pp 262-263.

من تحليل خطاب المبحوثين[6] حول الجار في حي الصباح وجدنا أنه ينقسم إلى أربعة مستويات (هرمية مفتوحة) يتم الانتقال بينها من طرف الفاعلين حسب تغير الآفاق للتعبير عن المواقف والقيم والتصورات التي توجه الممارسات في اتجاه تحقيق تملك المجالين المادي والاجتماعي على حد سواء.

المستوى الأول: أسميناه[7] "المستوى الديني" أو"الجار المقدس": ينطلق المبحوثون عموما في الحديث عن الجار من المستوى الديني حيث تردد تقريبا في كل المقابلات أن ""الجار وصى عليه ربي والنبي"، يستشهد المبحوثون عن إيمانهم بأهمية ومكانة الجار ببعض الأحاديث النبوية: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه". في هذا المستوى يحظى الجار بأهمية كبيرة، ولكن المقصود بالجار ليس الآخر وإنما الشخص المتحدث (المبحوث)، أي أن الجيران يجب أن يحسنوا إلى المتحدث ويهتموا به إلى درجة "ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه"، ويكنوا له الاحترام والإيثار وما إلى ذلك.

المستوى الثاني: يمكن أن نسميه "المستوى المخيالي"، حيث يصبح "الجار حنينيا" أو هو"الجار الذي يُحَنُّ إليه (le voisin nostalgique)". إذ يسترجع المبحوثون من خلاله "صورة مخيالية" عن حقبة تاريخية من حياتهم الماضية، إذ تردد على مسامعنا أثناء المقابلات: "...بكري كانوا الجيران كي الخاوة..."، "... يا حصراه منين كان الجار كي الخو... يقسم معاك فم خبز..."، "... مع جيراني، ما كانش كاين الباب... داري وديارهم وحدة...". في هذا المقام يسترجع المبحوثون صورة الجار في الحي الشعبي أو الحي القصديري، حيث كانت الحدود المادية غير موجودة، وكان التفاهم والتضامن والتكافل وتقاسم كل شيء (le partage) والاحترام المتبادل، تمثل قواعد لا تناقش -بل لا تحتاج إلى نقاش- لأنها كانت تعتبر من ميراث الأجداد المشترك، وهي صميم الحياة الاجتماعية، ومن أساسات التعايش والتساكن والجوار القوي.

المستوى الثالث: هو المستوى الذي يرتبط بالوضع المعاش حاليا، ويمكن أن نسميه "الجار الشائع"[8]. في هذا المستوى يتكلم المبحوثون عن الجار وكأنه غير مرغوب فيه، ويحاكم محاكمة شديدة على ممارساته التي إما لا تحترم العيش المشترك، أو لا تتوافق مع الممارسات المعروفة لدى المتحدث (ميراث الأجداد)، جار "متخاذل" لا يعتمد عليه، بل وأحيانا يخشى الاقتراب منه، إنه الجار "الأمسمي" أو"اللامسمى"، النكرة (l'anonyme) الذي لا يعرفه الساكن ولا يرى فيه سوى مصدرا للقلق والحيطة والحذر، يتوقع منه كل شيء بل حتى الأسوأ، وهو دائما محل

---

[6] من أجل هذا قمنا بالعودة إلى دفتر الميدان الذي احتوى على الملاحظات الميدانية، ودفتر المقابلات التي أعدنا كتابتها.. وكنا نركز حول المحور الخاص بالخطاب حول الجار. لقد وجدنا أن كل المبحوثين ينطلقون في الحديث عن الجار من المستوى الديني، ويرجعون إلى مخيالهم ليعبروا عن حنينهم إلى جيرانهم القدامى، ويحكون قصصا وأحداث تصب في اتجاه أن "الجار الحنيني كان نعم الجار". هناك من كان يجري مقارنة بين الجار الحنيني والجار الشائع مركزا على مساوئ جيران اليوم، وكيف تحولت الأمور من الثقة العمياء إلى الثقة اليقظة (الحذر والخوف من الآخر). وعن السؤال الذي يستهدف رصد صورة الجار الذي يريدونه، فإن المبحوثين يرسمونها قريبة من صورة الجار المقدس والجار الحنيني، ولكن تضاف إليها بعض المواصفات التي يفرضها شكل ونمط السكن الجماعي. وقد أوردنا بعضا من تصريحات المبحوثين (مقتطفات بين مزدوجين كما وردت بالدارجة الجزائرية) لتدعيم التحليل.

[7] هذه التسميات المقترحة هي محاولة واجتهاد شخصي من طرفنا، وهي تحتاج إلى نقاش ونقد وإثراء، لذا نستعملها بين مزدوجين في انتظار تطويرها وتنقيحها في المستقبل.

[8] على وزن العامل الشائع، والأستاذ الشائع، والطالب الشائع... انظر:
Djamel-Eddine Guerid, 1997 ; et Djamel-Eddine Guerid (s/dir), 1998.

مقارنة مع الصورة المخيالية للجار الحنيني:. اليوم وين راهم الجيران... عندي جاري jamais هدر معاي... ما يقولش السلام..."...الجيران نتاع اليوم ما كان حالة... بكري كانت الرجلة والنيف... اليوم غير الحيلة والـ profitage".

المستوى الرابع: يتعلق بالمستقبل المأمول، بالجار المرغوب فيه، الذي يتمنى الساكن أن يكون موجودا، وفي بعض الأحيان هو موجود ولكنه أقلية... يمكن أن نطلق عليه تسمية "الجار المواطن" (Le voisin-citoyen). حيث أن المواصفات التي يراد أن تتوفر فيه تتفق إلى حد بعيد مع تعريف السكان للمواطنة (Bachir Senouci, 2012, p 176). هذا الجار يستحب أن يتوفر فيه احترام للحياة المشتركة واحترام الآخرين والتعامل معهم على أساس المساواة دون النظر إلى أعراقهم أو أصولهم الجغرافية أو مستواهم السوسيو-اقتصادي، هذا الجار يكون "موضوعيا" لا يطلق أحكاما (قيمية أو مسبقة) على الغير ("جار فيه النية" على حد تعبير أحد المبحوثين)، جار له القدرة على "الاستماع الفاعل" (l'écoute active الانصات) والفهم والإحساس بهموم الآخرين دون أن يظهر أو يتفاخر بنجاحه الاجتماعي، جار يحترم التزاماته مع جماعة الساكنين، جار يحترم المجال العمومي ويصون نظافته، جار يقدم يد العون، يحترم الخصوصية والحميمية، "...جار يحب للغير ما يحب لنفسه...".

ما يمكن أن نشير إليه بمناسبة هذه المستويات في تصور وتمثل الجار، هي المسافة الزمنية التي تفصل الجار المقدس عن الجار المواطن، والدور الذي تلعبه صورة الجار الحنيني في صناعة صورة الجار الشائع، هذا الأخير الذي فرض وجوده في أذهان السكان (المبحوثين) إلى درجة أنه خلق هوة بين الجار المقدس والجار المواطن، على الرغم من أن مواصفات هذين الصنفين ليست بعيدة. ففكرة "الجار الذي يحب لغيره ما يحب لنفسه" التي ساقها المبحوثون بصيغ مختلفة، هي ذات مصدر ديني من جهة، ومطلب مواطنة، من جهة أخرى.

خاتمة:

في الوضعية التي درسناها بحي الصباح، يمكن أن نلاحظ أن هوية الانتماء إلى الحي الجديد تجد صعوبة في الانبثاق والترسخ كهوية مجالية أمام الهويات المجالية السابقة التي يجندها السكان في تعريف ذواتهم والتي تشكلت من خلال تجاربهم الحياتية في الأحياء العتيقة-العريقة بمدينة وهران، فبالنسبة للمبحوثين، التعرف على أساس أنهم من "سيدي الهواري" أومن "سان بيير" يعطيهم هوية أقوى من هوية الانتماء إلى حي الصباح (الجديد نسبيا مقارنة بالأحياء المذكورة)، وكأنها تعطيهم الحق في الانتماء إلى مدينة وهران، أو إلى مجتمع "الوهارنة"، يدعم هذا التصور (الإحساس الذاتي) لدى السكان، كما يتدعم في نفس الوقت، بهذا التصور المتعدد الأبعاد عن الجار، وبتلك الصورة السلبية "الجامدة" التي تشكلت عن حي الصباح وعن سكانه وعن الحياة الاجتماعية فيه، مقارنة بما كان في أحياء سكنهم السابقة.

إن التحليل المتواضع الذي قدمناه في ثنايا هذه الورقة، وإن كان من المغامرة تعميمه وليست تلك غايتنا- فهو على الأقل يجعلنا ننظر إلى المسألة الهوياتية من زاوية مختلفة تكشف عن التعقيدات التي تظهر عندما يتواجه منطق سياسة تسيير المسألة الحضرية، مع أزمة السكن، مع النزوح الريفي، مع تغير المجتمع بديناميكية تجعله يبدو أكثر تقدما على الدولة في تطلعاته، وقد

يظهر للكثيرين أن الساكنة الحضرية تعيش يومياتها مرغمة على التعايش ضمن فضاءات ضيقة، مدفوعة إلى مستويات عالية من الاجتماع والاحتكاك الاجتماعي والتواصل الثقافي –وهو ما يتحفظ عليه البعض ولا يتقبله البعض الآخر- وكأننا أمام إشكالية (أومفارقة) أن "المدينة لم تستطع استيعاب ممارسات المجتمع"(ممارسات استثنائية ومتميزة ولكنها ليست شاذة)، وأن "المجتمع كذلك لم يستطع استيعاب ممارسات المدينة"، لكنه يصنع ويغير ويبتكر يوميا مدينته (أو مدنه) المختلفة، الجزائرية بامتياز والتي تختلف عن نموذج المدينة الأوربية المكرس في الحس المشترك، وحتى لدى بعض الباحثين.

قائمة المراجع:

1. الكنز علي(2001)، من الإعجاب بالدولة إلى اكتشاف الممارسة الاجتماعية، في العلوي سعيد بن سعيد وآخرون، المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره تحقيق الديمقراطية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
2. حجيج الجنيد(2009)، التباينات الاجتماعية السكنية في وهران(الجزائر): من الاتجاهات الماضية إلى الأشكال الحالية"، في عطية عاطف، كبال مها (إشراف)، المدينة العربية بين التغيرات الاجتماعية وتحولات المجال، منشورات الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، بيروت، لبنان.
3. مرحوم فريد(2015)، السكن الجماعي في الجزائر: سكان حي الصباح (وهران) بين الاجتماع والصراع، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة محمد بن أحمد، وهران 2.
4. Boubeker Ahmed(2005), «L'espace commun, un passage vers la ville et la citoyenneté», In Haumont Bernard, Morel Alain (s/dir), La société des voisins, Eds de la Maison des Sciences de l'Homme, Paris.
5. Coulon Alain(1997), L'école de Chicago, 3éme edition, PUF, Paris.
6. Guerid Djamel-Eddine(dir)(1997), Culture d'entreprise, Ed CRASC, Oran.
7. Guerid Djamel-Eddine(s/dir)(1998), L'université aujourd'hui, Ed CRASC, Oran.
8. Hadjidj El Djounid(2011), «Sociabilité et rapports de voisinage dans la cité Khémisti (LSP) et USTO pépinière (AADL)», in Rapport final du Projet CNEPRU: Ville et liens sociaux, Les grands ensembles à Oran entre adaptabilité et sociabilité, Université d'Oran.
9. Hadjidj El Djounid(2011), «Identités culturelles et fabrique d'un projet architectural en Algérie», in Sedjari Ali (dir), Culture et Cultures, un défi pour les droits de l'homme, L'Harmattan, Paris.
10. McKenzie Roderick(2009), «Le voisinage: une étude de la vie locale à Colombus, Ohio», in Grafmayer Yves, Joseph Isaac, L'Ecole de Chicago : naissance de l'écologie urbaine, 3e édition, Flammarion, Paris.
11. Sayad Abdelmalek(1980), «Les effets naturels du relogement », In Sciences Sociales Panorama: «spécial habitat», N° 4-5, pp 11-27.

12.Senouci Bachir(2012), «Citoyenneté et environnement», in Remaoun Hassan (dir), L'Algérie aujourd'hui: Approches sur l'exercice de la citoyenneté, Ed CRASC/ENAG, Algérie.